الفصل الخامس

عمر يستفتح عهده

قُبض أبو بكر بعد مغيب الشمس من مساء الاثنين لإحدى وعشرين ليله خلت من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة من الهجرة (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٢ م) فلما جنّ الليل غُسِّل وحُمل على السرير الذى حمل عليه رسول الله إلى المسجد ، وصُلى عليه ، ونُقل جثمانه إلى قبر الرسول ، ودُفن فى حفرة إلى جنبه صلى الله عليه وسلم ، وجُعل رأسه إلى كتف رسول الله وألصق اللحد باللحد . وقد تولَّى دفنه عمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان وطلحة ابن عبيد الله وعبد الرحمن بن أبي بكر .

أتم عمر واجبه الأخير للخليفة الأول ، وخرج من حفرة القبر بدار عائشة فسلمّ على أصحابه ، ثم انطلق عائداً أدراجَه يؤمُّ داره بعد منتصف الليل [1] . ودخل مضجعه وجعل يفكر فيما يتنفَّس عنه الغد . فسيبايعه المسلمون من بكرة النهار ليتولى أمورهم ، فيواجه منهم من رضى استخلافه كارهاً ، ثم يواجه الموقف الحربِي الجليل الدقيق فى العراق وفى الشام ؛ فماذا عسى أن يفعل ليتغلب على هذين الأمرين وهما بأعظم مكان من جلال الخطر فى حياة الدولة الناشئة .

كان موقف المسلمين بالعراق والشام يومئذ بالغاً غاية الدقة ، فقد جمدت قوات المسلمين بالشام أمام قوات الروم فأنجدها أبو بكر بخالد بن الوليد فى عدد من جيش العراق . مع

---

(١) أورد ابن سعد فى الطبقات روايات عن أول خطبة خطبها عمر ، ومنها رواية مسندة إلى عفان بن مسلم ووهب بن جرير عن جرير بن حازم عن حميد بن هلال عمن شهد وفاة أبي بكر ، تجرى بما نصه : « فلما فرغ عمر من دفنه نفض يده من تراب قبره ، ثم قام خطيباً مكانه » ثم تورد خطاباً سيتلو القارئ نصه فى موضعه من هذا الفصل . ونحن نرتاب فى قيام عمر يخطب فى هذا الموقف ، ونرجح أن عمر ألقى هذا الخطاب فى موقف آخر . فقد أبّن عمر أبا بكر كما أبّنه على بن أبي طالب وابنته عائشة أم المؤمنين لأول ماذاع نبأ وفاته بعد مغيب الشمس ، ولم يزد عمر فى تأبينه على أن قال : « ياخليفة رسول الله ! لقد كلفت القوم بعدك تعباً ، ووليتهم نصباً . فهيهات من شق غبارك ، فكيف اللحاق بك » .. وقد دفن أبو بكر بعدما جن الليل . ودفن بدار عائشة فى الحفرة التى دفن فيها رسول الله ، ولم يكن بالحفرة أحد غير الذين تولوا الدفن . وقد أراد عبد الله بن أبي بكر أن يعاونهم ، فقال له عمر : « كفيت » . فليس طبيعياً أن يقوم عمر خطيباً فى هؤلاء . ثم إن أكثر الناس كانوا قد أووا إلى منازلهم ، فلم يكن منهم بالمسجد فى هذا الساعة إلا قليلون هم أهل الصفة ، لأن المسجد لم يكن يضاء فى ذلك العهد .

ذلك أقامت القوات وخالد على رأسها ولا يبلغ المسلمين بالمدينة من نبئها ما يبعث إلى نفوسهم الأمل فى نصرها أو يطمئنهم على مصيرها . وقد ضعف جيش العراق بغياب خالد فيمن فصل بهم من المسلمين إلى الشام ، فلم يستطع المُثَنَّى بن حارثة الشيباني ، على براعته ومقدرته ، أن يحتفظ بكل ما غنمه المسلمون من سواد العراق ، فارتد إلى الحيرة وتحصّن بها . حقًّا إنه انتصر على جيش من الفرس وجّهه شهريران بن أردشير بقيادة هرمز جاذويه ، فالتقى هو والمسلمون على أطلال بابل فردّوه مدحوراً . لكن المثنى رجع بعد نصره يتحصن بمواقفه الأولى خيفة أن يُبَاغَت ، موقناً أنه لن يستطيع التقدم وإن استطاع المقاومة . بل لقد تصبح المقاومة أمراً عسيراً إذا اطمأن بلاط فارس وزال اضطرابه . لهذا كتب إلى أبي بكر يستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردّة ، وكان أبو بكر قد حرّم الاستعانة بهم فى الحرب . فلما أبطأ عليهم ردُّ الخليفة استخلف بشير بن الْخَصَاصيَّة على من بالعراق من المسلمين ، وذهب إلى المدينة يعرض موقفه الدقيق ، ويدافع عن رأيه فى الخروج منه .

ترى كيف يواجه عمر هذه الأمور كلها ؟ فى هذا وفيما يتصل به بات يفكر ليله ، ضارعاً إلى اللّه أن يلهمه الرأى ، وأن يهديه الصراط السوىّ . إنه سيرى المثنى فى طليعة من يراهم متى أصبح ، وسيطلب المثنى إليه ماطلبه إلى أبي بكر من قبل ، أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردّة ، وسيردد المثنَّى أن التائبين من أهل الردة يطمعون فى مغانم الغزو ، فلا أحد أنشط إلى الحرب منهم ، وقد أوصى أبو بكر عمر فى أمر العراق وصية لابدّ من تنفيذها ، إذ دعاه إليه وقال له : « اسمع ياعمر ما أقول لك ثم اعمل به ! إني لأرجو أن أموت من يومى هذا . فإن أنا متُّ فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنَّى ،وإن تأخرت إلى الليل فلا تُصبحن حتى تندب الناس مع المثنى . وإن فتح اللّه على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد إلى العراق فإنهم أهله وولاة أمره وحَدُّه ، وهم أهل الضراوة بهم والجرأة عليهم » .

أفيندب الناسَ مع المثنى أم يدعه يستعين بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ؟ إنه ليخشى أن يتقاعس الناس إذا ندبهم بعد ما رأوا أصحابهم بالشام لايستطيعون التقدم فيه ، ورأوا المثنى بالمدينة خائفاً من الفرس وصولتهم . ولكن المسلمين لابقاء لهم بالعراق إذا لم تعزّز قواتهم فيه بمدد قوىّ . والتفكير فى الانسحاب من تلك البلاد أمر لايخطر للمثّنى ببال ؛ فهو الذى دفع أبا بكر لغزوها ، وهو الذى تقدم خالداً والمسلمين جميعاً إليها ؛ فليس هيناً على نفسه أن يجلو عن بلد كان الطليعة فى غزوه ، وأن يجلو عنه وهو موقن بمقدرته على فتحه . ولو أن عمر أمدّه بالتائبين من أهل الردة ، لتابع الفتح ففضّ على كسرى إيوانه .

obeikandl.com

ولم يخطر الانسحاب من العراق ببال عمر كذلك ؟ فإنما استخلفه أبو بكر ثقة منه بأنه أقدر المسلمين على متابعة سياسته ولا سبيل إلى متابعة هذه السياسة إلا أن يأخذ الأمر بالحزم. وأن ينفّذ وصية الصدّيق فيندب الناسَ مع المثنى ، وأن يعزز قوات المسلمين بالشام . أترى وجوه المسلمين وأصحاب رسول الله الذين برموا باستخلافه يعاونونه فى ذلك صادقين ؟ وإذا ترددوا فى معاونته فما عساه يصنع ؟ وماذا يكون من أثر ترددهم فى العرب وفى ولائهم للمدينة؟ ألا إن سياسة الحزم وحدها هى التى تنجح فى هذا الموقف . والحزم لاينقص عمر . فليعزم الأمر ، وليتوكل على الله !

بات عمر وقد عنّاه التفكير فى هذا كله ، وأصبح فخرج إلى الناس بالمسجد ، فأقبلوا على بيعته إقبالا سكّن بعض ما جاشت به نفسه . فلما كان الظهر وازدحم الناس للصلاة ، صعد عمر المنبر درجةً دون الدرجة التى كان يقوم أبو بكر عليها ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبى ، وذكر أبا بكر وفضله ثم قال : « أيها الناس ! ما أنا إلا رجل منكم ، ولولا أني كرهت أن أردّ أمر خليفة رسول الله ماتقلّدت أمركم » . قال هذه العبارة متأثراً فى تواضع ورفق أخـذ بهما الناس ورأوا فيهما دليلا على صدق فِراسة الصِّديق فيه ، وبُعْد نظره فى استخلافه ، فأثنوا على عمر خيراً وزادهم ثناءً عليه أن رأوه يتوجه بنظره إلى السماء ويقول : « اللهم إني غليظ فليِّنّى ! اللهم إنِي ضعيف فقوّنِي ! اللهم إنِي بخيل فسخِّنّى ! » . وأمسك عمر هنيهة حتى سكن الناس ، ثم قال : « إن الله ابتلاكم بِي ، وابتلاني بكم ، وأبقاني فيكم بعد صاحِبيّ . فوالله لايحضرنِي شيء من أمركم فيليه أحد دونِي ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجَزْء والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسننّ إليهم ، ولئن أساءوا لأنكِّلن بهم » .

أتم عمر كلامه ثم نزل فأمّ الناس للصلاة ، حتى إذا فرغ منها التفت إليهم فندبهم للذهاب إلى العراق مع المثنَّى ، وذكر لهم وصية أبِي بكر فى ذلك . وسمع الناس نداء الخليفة ، فنظر بعضهم إلى بعض ثم لم يجب الدعوة منهم أحد . وكأنما ذكروا ماأصاب إخوانهم بالشام ، فلم يريدوا أن يصابوا بمثله . أليس أبو بكر قد دعاهم لغزو الشام فترددوا فقام عمر يومئذ فصاح بهم : « مالكم يامعشر المسلمين لاتجيبون خليفة رسول الله إذا دعاكم إلى مايُحييكم ! » عند ذلك أجابوا الدعوة ، فساروا لمواجهة هِرقل وجنوده . وهاهم أولاء أبو عبيدة بن الجرّاح وعمرو بن العاص ويزيد بن أبِي سفيان ، ومن معهم من الصحابة ومن تبعهم من الأمراء والأبطال من مختلف الأرجاء فى شبه الجزيرة ، فى موقفهم من الروم لايستطيعون التغلب عليهم ، ثم لم يُغن عنهم أن أمدهم أبو بكر بخالد بن الوليد بعدما دوّخ الفرس بانتصاراته

فى العراق . أتراهم يكونون أحسن حظًّا إذا لبُّوا نداء عمر وساروا مع المثنى فى العراق ؟ ! أم تراهم يقفون هناك من جنود كسرى موقف أصحابهم بالشام من جنود هرقل ؟ ! وليس يطمع أحد منهم فى أن يردّ عمر خالداً إلى العراق وهم يعلمون سوء رأيه فيه ، ويذكرون موقفه منه فى حادث مالك بن نويرة .

والمثنّى بن حارثة قائد عظيم لاريب ، لكنه ليس من قريش وليس من أصحاب رسول الله ، بل هو من بنى بكر بن وائل . ثم إنه لم يلبث ، حين فَصَل ابن الوليد من العراق إلى الشام ، أن انسحب من سواد العراق إلى الحيرة ، ثم جاء إلى المدينة يستمد الخليفة ، ويدل بذلك على أنه فى مكان من الفرس لايحسد عليه . ولعل له عذره ، فاسم الفرس كان يُلقى فى قلوب العرب الرعب . ولقد ظن بعضهم أن خالداً غلبهم لأنهم استخفّوا بادئ الرأى بأمره ، فلم يواجهوه من قوتهم بما يردّه على عقبه . أمّا وذلك الشأن فما لهم ولقتال قد تدور عليهم دائرته ؟

لم يَخِفَّ أحد من الزعماء وأولى الرأى ملبياً نداء عمر . وإذا تثاقل هؤلاء كان غيرهم من جمهور الناس أكثر تثاقلا . هنالك أطرق عمر هنيهة ، ثم عاد إلى مجلسه من المسجد وعاد الناس يتتابعون على بيعته وانصرف الناس بعد العشاء ، وبقى عمر ليله يفكر . فلما أصبح وأخذ مكانه من المسجد ، وعاد الناس يتتابعون على بيعته ، ونادى المنادى لصلاة الظهر ، فما لبث عمر حين انفتل منها أن نادى فى الناس بصوته الجهير يأمرهم أن يردّوا سبايا أهل الردّة إلى عشائرهم ، ويعلل ذلك بقوله : « إني كرهت أن يصير السبى سُنّة فى العرب » .

سمع الناس هذا الأمر ، فشخصت أبصارهم إلى عمر ، وجعلوا يتساءلون بينهم : ماذا أراد به ؟ ! لقد سبي المسلمون من العرب فى حروب الردة تنفيذاً لأمر أبي بكر حين أذاع فى أرجاء شبه الجزيرة أنه أمر كل قائد من قواده ألا يقبل من مرتدّ إلا الإسلام ، ومن أبي يقاتله على ذلك ، ولا يُبقى على أحد منهم قدر عليه ، وأن يُحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى النساء والذرارى . أفيريد عمر بهذا الأمر أن يخالف أبا بكر وأن يجرى على غير سنته ؟ أم أنه رأى الناس تقاعسوا حين ندبهم للذهاب مع المثنّى فأراد أن يستميل العرب من مختلف القبائل إليه ليمد المثنى بهم ؟ أيًّا ماكان الأمر ، فما أمر به جديد فى سياسة الدولة يقف النظر ويوجب التساؤل .

الحق أن عمر لم يذق النوم فى الليلتين اللتين انقضتا منذ قُبض أبو بكر إلا غراراً .

فالناس يتتابعون على بيعته احتراماً لعهد الصدِّيق ووصيته . ولكن الكثيرين من زعمائهم لايزالون يبرّمون به لغلظته ، وقد كان لبعضهم فى ولاية الأمر مأرب . ولن تستقيم الأمور فى دولة لا يتضامن أولو الرأى فيها على توجيه سياستها ، والموقف أدق من أن يدعه عمر للزمن مكتفياً بأن يدعو الله أن يحببه للناس وأن يحبب الناس إليه . فإن لم يأخذ الأمر بالحزم أوشكت شئون الدولة أن تضطرب . أما وقد أمر بردّ السبي إلى عشائرهم فتألّف قبائل العرب وكسب قلوباً كانت تنفر من شدّته ، فليمض غير متردّد فى سياسته . ولقد خرج إلى الناس بالمسجد فى اليوم الثالث ، فلما فرغوا من بيعته قام فيهم فقال : « إنما مَثَلُ العرب مثل جملٍ أنِفٍ [1] اتّبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . أمّا أنا فوربّ الكعبة لأحملنهم على الطريق » .

ازدادت الأبصار شخوصاً إلى عمر ، وخيِّل إلى الحاضرين بالمسجد جميعاً أن هذا الرجل سيكون عليهم سوط عذاب بشدته وغلظته . ورأى عمر ذلك فى وجوههم ، فصعد المنبر حين ازدحموا لصلاة الظهر فقال :

« بلغنى أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبوبكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ، ومن قال ذلك فقد صدق .

« . . . إننى كنت مع رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لايبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان – كما قال الله – بالمؤمنين رءوفاً رحيما . فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يُغمدنِي أو يدعنى فأمضى . فلم أزل مع رسول الله حتى توفّاه الله وهو عنى راض ، والحمد لله كثيراً وأنا به أسعد .

« ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لاتُنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتِي بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يُغمدنِي أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض . فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

« ثم إني وليتُ أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض . ولست أدع أحداً يظلم أحداً أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر حتى يُذعن بالحق . وإني بعد شدتِي تلك أضع خدّى على

(١) جمل أنف أى ذلول ، وهو الذى عقر الخشاش أنفه ، فهو لايمتنع على قائده للوجع الذى به .

الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف .

« ولكم علىّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها :

« لكم علىّ ألا أجتبى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه . ولكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه ولكم علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسدّ ثغوركم . ولكم علىّ ألا ألقيكم فى المهالك ، ولا أجمّركم فى ثغوركم[1] ، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال

« فاتقوا الله ، عباد الله ، وأعينوني على أنفسكم بكفها عنى ! وأعينوني على نفسى بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة فيما ولاني الله من أمركم . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

قال عمر هذا القول ثم نزل فأمَّ الناس للصلاة ، وأتمها ثم انصرف عنهم . وجعل الناس يفكرون فيما سمعوا منه . لقد عرفوه رجلا صريحاً ظاهرُه كباطنه ، وسرُّه كعلانيته وعرفوه رجلا عادلا مع ما فيه من شدة وغلظة . وها هو ذا يذكر لهم أن شدته لن تكون إلا على الظالمين . وهو لا يخدعهم حين يقول إنه سيكون لأهل السلامة والقصد ألين من بعضهم لبعض ، فقد عرفوا من رفقه فى بعض المواضع مالا سبيل إلى إنكاره أو نسيانه . ثم إنه وعدهم أن يزيد فى عطاياهم وأرزاقهم ، وأن يكون أباً لعيالهم إذا غابوا عنهم فى حرب . أليس خليقاً بهم أن يُولوه كل ثقتهم ، وأن يجيبوا دعوته إذا دعاهم ؟ !

كان ذلك شأن كثيرين من سواد الحاضرين . أما زعماؤهم فقد ظلوا فى تحفظهم ، برماً بعمر من جانب بعضهم ، وهيبة للموقف فى الشام وفى العراق من جانب الأكثرين . وعاد عمر لصلاة العصر ، ثم ندب الناس مع المثنى فاثّاقلوا . وكان المثنى حاضراً ، وكان شديد الإلحاح على عمر أن يعينه بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة ، فهم لقتال الفرس أنشــط . وزاد إلحاحه شدة حين أمر عمر بردّ السبى من أهل الردّة إلى عشائرهم ، ثقةً منه بأن هذا الأمر سيجعلهم أكثر إقبالا على السير معه . فلما أبطأ عمر فى إجابته إلى ما طلب ورأى الناس يزدادون إقبالا على عمر وطمأنينة لخلافته ، طمع فى أن يتقدموا لما ندبهم الخليفة له . لكنه رأى تثاقلهم ، وتبين فى وجوههم أن وجه فارس من أكره الوجوه إليهم ، وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وعزّهم وشوكتهم وقهرهم الأمم . عند ذلك وقف يخطبهم فقال :

---

(١) تجمير الجيش : جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العود إلى أهلهم .

obeikandi.com

« أيها الناس ! لا يعظُمنّ عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تبحبحنا(١) ريف فارس وغلبناهم على خير شِقَّى السواد ، وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ مَنْ قِبَلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » .

سمع عمر عبارة المثنى ورأى حسن أثرها فى الناس فقام فيهم خطيباً ، فكان مما قاله لهم : « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النُّجعة(٢) ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . أين الطُّرَّاء المهاجرون عن موعود الله ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يُورثكموها ، فإنه قال (لِيُظْهِرَهُ على الدين كله) . والله مُظهرٌ دينه ، ومعزّ ناصره ، ومُولٍ أهلَه مواريثَ الأمم . أين عباد الله الصالحون ! » .

شعر الناس بما فى تثاقلهم من سبّة لهم بعد الذى سمعوا من كلام المثنَّى ومن كلام عمر . إنهم نصروا رسول الله وأعزوا دين الله ، ونصروا أبا بكر من بعده فنصرهم الله ، فما بالهم لايتحركون لدعوة عمر ! وترددوا : أيلبّون الدعوة أم يظلون على تقاعسهم . وإنهم لكذلك إذ تقدّم أبو عُبَيْد عمرو بن مسعود الثقفى للسير إلى العراق ، فكان أوّل منتدب لهذا الأمر الجليل . وثنّى من بعده سليط بن قيس . عند ذلك اجتمع الناس إليهما وأجمعوا السير معهما ، فكان معهما ألف رجل من أهل المدينة . ورأى عمر اجتماع ذلك البعث فاغتبط أيما اغتباط ، وخفق قلبه شكراً لله أن أخرج المسلمين من ذلك الجمود الذى كانوا فيه ، والذى أوشك أن يفسد عليهم أمرهم .

مَن من المهاجرين والأنصار يتولى إمارة البعث ؟ فكر الذين ترددوا فى إجابة الدعوة فى هذا الأمر ، وخافوا أن يجعل عمر الإمارة على جيش فيه عدد عظيم من أهل المدينة لواحد من غير أهل المدينة . لذلك أسرع قوم إلى الخليفة يقولون له : « أمِّر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والأنصار » . لكن ترددهم ثلاثة الأيام الأولى من خلافة عمر قد حزَّ فى نفسه وأحفظه عليهم . لذلك لم يتردد أن أجابهم : « لا والله لاأفعل ! إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو . فإذا جَبُنْتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء . والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتداباً » . ثم دعا أبا عبيد فولاه الإمارة ، ودعا سعد بن عبيد وسليط بن قيس وقال لهما : « أمَا إنكما لو سبقتماه لولّيتكما ولأدركتما بها إلى مالكما من القدمة » .

---

(١) تبحبح المكان : توسطه وتمكن منه .

(٢) النجعة : طلب الكلأ فى موضعه .

اطمأن المثنى بن حارثة حين رأى هذا الجيش يتأهب للسير معه إلى العراق . أمّا عمر فرأى ألا حاجة بالمثنى إلى البقاء بالمدينة ؛ ولذلك أمره أن يرجع إلى العراق فيلحق بقواته فيه ، وقال له : « النجاء حتى يقدم عليك أصحابك . . » . وأخذ الجيش الجديد فى الأهبة ، حتى إذا دني موعد الرحيل قال عمر لأبي عبيد يوصيه :

« اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين ، فإنها الحرب ، والحرب لايُصلحها إلا الرجل المَكِيث الذى يعرف الفرصة والكف »

هذه مشكلة معقدة ألهم الله عمر فيها الرأى ، فحلّها فى أربعة الأيام الأولى من خلافته . ثم لم يصرفه اشتغاله بها عن التفكير فى المشاكل الأخرى القائمة أمامه . فقد فكر فى أمر الشام ، وفى أمر نصارى نجران ، وفى سائرِ الأمور التى كان يرى فيها غير رأى أبي بكر ، وفكر فى الخُطّة التى يجب أن يسير عليها لينفذ رأيه ويجمع المسلمين حوله . وكان حين تنفيذه رأيه فى هذه المشاكل صريحاً كعهد المسلمين به ، حازماً غاية الحزم ، لايعرف التردد ولا المداراة ، ولا يأبي أن يحمل التبعة كاملة ، لأنه كان يؤمن بأنه على الحق ، وأن الله مؤيده لذلك لامحالة .

لقد عرف الناس جميعاً سوء رأيه فى خالد بن الوليد ، وحرصه فى حادث مالك بن نويرة على أن يُقِيد أبو بكر منه . ولم يتغير رأى عمر فى خالد من بعد هذا الحادث . وقد فَصَل خالد من العراق إلى الشام بأمر أبي بكر وولى الإمارة على قوات المسلمين فيه ، ثم قضى به أكثر من شهر فلم يتغلب على قوات الروم ، بل لم يواجههم . أية فرصة خير من هذه لعزل خالد عن إمارة الجيش ورد هذه الإمارة إلى أبي عُبيدة ! وهذا مافعل عمر . فقد كتب إلى أبي عبيدة غداة قبض أبو بكر ، يخبره بوفاة الخليفة ، ثم كتب بعزل خالد وتولية أبي عبيدة إمارة الجيش مكانه ، وأن يكون خالد أمير اللواء الذى كان أبو عبيدة أميره. وبعث بوفاة أبي بكر مع يَرْفأ مولاه ، وبعزل خالد وإمارة أبي عبيدة مع مَحْمِيَة بن زنيم وشدّاد بن أوس . وأوصى أبا عبيدة فى كتاب توليته بقوله : « لاتُقْدِم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة ، ولا تُنزلهم منزلا قبل أن تستر يده لهم وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرّية إلا فى كَثْفٍ من الناس . وإياك وإلقاء المسلمين فى هلكة ! وقد أبلاك الله بى وأبلاني بك ، فغمِّض بصرك عن الدنيا وألْهِ قلبك عنها . وإياك أن تهلكك كما أهلكتْ من كان قبلك فقد رأيتم مصارعهم ! » .

كيف غامر عمر بعزل خالد وخالد على رأس قوات المسلمين بالشام ، وهذه القوات

فى موقف دقيق ! فقد كانوا هناك بإزاء الروم لا يواجهونهم ولا يقدرون من أمرهم على شىء ، ولا يقدر الروم من أمر المسلمين على شىء . كان ذلك موقفهم قبل أن يذهب خالد بن الوليد من العراق إليهم . ثم ظلوا فيه بعد أن أقام خالد بينهم . كان كلا الفريقين يتحين الفرصة التى يخرج فيها من جموده ، ويوقع فيها بعدوّه . أفلا يخشى الخليفة أن يفتّ أمره بعزل خالد من أعضاد المسلمين فيزيد موقفهم دقة ؟ أولم يكن الأجمل به أن يتريث حتى يخرج خالد بالمسلمين من المأزق الذى هم فيه ، وله بعد ذلك أن يأمر بما يشاء ؟ !

هذه اعتبارات لها من غير شك قيمتها فى تطور القتال . وسنرى من بعدُ أن أبا عبيدة قدّرها قدرها دون أن يخشى بَرَمَ الخليفة به ، أو غضبه عليه . لكن عمر نظر فى الأمر من غير هذه الناحية . فلو أنه أرجأ الأمر بعزل خالد إلى ما بعد المعركة لأضرّ ذلك بسياسته وأفسد عليه خُطتـه . فليس للمعركة مصير إلا أن ينهزم المسلمون فيها أو ينتصروا . فإن انهزموا لم يُغن عزل خالد عن هزيمتهم ، وإن انتصروا وخالد قائدهم لم يكن لعمر أن يعزل قائداً فى أوج نصره ، فإن فعل أتى أمراً إدّا . وعمر حريص على ألا يبقى خالد على القيادة العامة بالشام أو بغير الشام . لذلك أسرع فأصدر الأمر بعزله ، وله من العذر أن خالداً لم يحقق ما ندبه أبو بكر لتحقيقه . فإذا انتصر المسلمون بعد هذا فلا تثريب على عمر فيه ، فهو إنما صنع ما اقتنع بأنه الحق ، وصنعه وخالد فى موقف لا يظلمه فيه من يأمر بعزله .

يتساءل الناس إلى يومنا هذا عن السر فى عزل عمر خالداً ، وخالد سيف اللّه على لسان رسول اللّه ، وهو الذى قضى على الردة وفتح العراق ، وهو البطل لا يُشَقّ غباره ، وعبقرى الحرب غير منازع . أحقًّا أن مقتل مالك بن نويرة وتزوُّج خالد من امرأته قد بقى له من الأثر فى نفس عمر ما حمله على هذا التصرف ؟ أم خشى عمر أن يفتتن خالد بالناس كما افتتنوا به لانتصاره المتصل فى الحرب ، وقد يجر افتتانه على الدولة شرًّا ؟ يرى بعضهم هذا الرأى الأخير ، ويذكرون أن خالداً رجع إلى المدينة يسأل عمر عما حمله على عزله فأجابه : « ما عزلتك لريبة فيك ولكن افتتن بك الناس ، فخشيت أن تفتتن بالناس » . وهذه رواية لاسند لها . فالثابت أن خالداً لم يذهب إلى المدينة بعد عزله ، وأنه بقى بالشام يتابع غزواته بإمرة أبي عبيدة حتى عزله عمر عن كل عمله بالجيش فى السنة السابعة عشرة من الهجرة . ولا أحسب كذلك أن مقتل مالك بن نويرة كان سبب العزل . فقد انقضت سنتان بين هذا الحادث واستخلاف عمر ، وفى هاتين السنتين بلغت عبقرية خالد فى القيادة أوْجَها ، وكانت فعاله فى غزوة اليمامة وفى حرب العراق حديث الناس جميعاً فى شبه الجزيرة وفى

obeikandl.com

فارس والروم . وعندى أن عمر إنما عزل خالداً لأن الثقة بين الرجلين لم تكن قائمة قبل خلافة عمر ولا فى أثنائها .

ولست أقصد ثقة عمر بعبقرية خالد ، أوثقة خالد بعدل عمر ، وإنما أقصد الثقة القائمة على ما يكون للرجل من حسن الرأى فى صاحبه حتى لَيُغضى عن هناته ، وحتى لَتُذْهِب الحسنة التى يأتيها صاحبه أضعافها من سيئاته . وقد كان عمر يرى فى خالد زهواً يدفعـــه إلى التسرع فى الحرب ، وإن لم يكن للتسـرع مسوغ ، وإن خالف به أمروليّ الأمر . وقد دفعه الزهو والتسرع إلى القتال يوم فتح مكة ، حين نهى النبى عن القتال ، كما دفعه للسير إلى بنى تميم وقتل مالك بن نويرة دون إذن من أبي بكر . وكان خالد ينسب كل ما يوجهه الخليفة الأول إليه من لوم إلى تحريض عمر ، حتى ليقول حين أمره الصدّيق بمغادرة العراق إلى الشام : « هذا عمل الأعيسر ابن أم سخلة ، حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى » . وإذا ضاعت الثقة بين رجلين على هذا النحو ، لم يكن تعاونهما مستطاعاً ، وبخاصة إذا كان أحدهما رئيس الدولة والآخر أمير جندها وصاحب لوائها . لا عجب إذاً أن يعزل عمر خالداً حتى لا تكون بينهما صلة مباشرة ، بل يكون أبو عبيدة هو الذى يوجّه خالداً ويُصدر إليه أوامره . وقد كانت الصلة بين خالد وأبي عبيدة صلة مودة وحسن رأى .

قد يعترض على رأينا هذا بأن الخليفة لا يلى أمر الدولة لحسابه ، بل لحساب المسلمين جميعاً . وكان من الواجب لذلك على عمر أن ينسى ما بينه وبين خالد ، وأن يدع سيف اللّه يمضى لايشيمه ، متأسياً فى ذلك بأبي بكر ، وما صنع ضارباً المثل للمسلمين فى تقدير الرجال بأعمالهم ، والسمو بهذا التقدير على الآراء والميول الذاتية . وهذا اعتراض له وجاهته فى المنطق النظرى لا ريب . لكن وجاهته هذه تتضاءل كل التضاؤل أمام الواقع من أمر هذه الحياة . فنحن معشر الناس ، لانتصرف فى شئون الحياة بعقولنا وحدها ، بل إن لعواطفنا علينا لسلطاناً أىَّ سلطان . وسواء أكان مانتصرف فيه من خاصة شئوننا أو بعض ما وُكِل إلينا من شئون غيرنا فإنا نتأثر حين التصرف فيه بشعورنا كتأثرنا بعقولنا ، وقد يكون الشعور أكبر من العقل أثراً فى اتجاهاتنا . ومن المحال أن نقيم بين حكم الشعور وحكم العقل حدًّا فاصلا . صحيح أن بعض الناس أكثر تأثراً بشعورهم ، وبعضهم أكثر تأثراً بعقلهم ، لكن اختلاف الكم لا يغيِّر من تزاوج الشعور والعقل فى توجيه أحكامنا . ولا ريب أن قد تأثر عمر بشعوره نحو خالد . ولعله كذلك قد ظن أن خالداً حسده على الخلافة ، كما

ظن خالد من قبل أن عمر حسده على فتح العراق . والرجلان بالغان غاية القوة كل فى ناحيته . فإذا تعارض شعور كل منهما نحو صاحبه على هذا النحو ، خيف أن يتصادما ، وأن يكون لتصادمهما أثر سيئ فى شئون الدولة وفى مصيرها . لذلك أخذ عمر الأمر بحزم حاسم لا يعرف هوادة ، غير ناظر إليه من ناحية العدل وما يوجبه ، بل من ناحية النظام العام ومن ناحية أمن الدولة وسلامتها .

على أن تصرف عمر بعزل خالد لم يكن شذوذاً منه ، وإن كان الأول من نوعه ، بل كان سياسةً جرى عليها مع الولاة والأمراء طيلة عهده . وسنرى من بعد أن مؤاخذة هؤلاء الولاة والأمراء بالشدة كانت من مألوف خطته ، وأنه كان يدعوهم إليه ، ويحاكمهم عما يبلغه من شكايات ، ويعزل من لايقتنع بدقته وأمانته فى أداء عمله . ذلك أنه كان يحرص على تركيز السلطة كلها فى يديه . وذلك قوله أوّل ولايته : « والله لايحضرني من أمركم شيء فيليه أحد دوني . ولايتغيب عنى فآلو فيه عن الجزْء والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسنن إليهم ، ولئن أساءوا لأنكّلن بهم » . إذا اجتمع هذا الرأى فى سياسة الدولة إلى ما عرف عن عمر وسوء رأيه فى خالد وضياع الثقة والألفة بين الرجلين ، تكشف السر فى عزل خالد ، وتكشَّف مكان هذا السر من نفس عمر .

عزل عمر خالداً عن إمارة الجيش بالشام وردّها إلى أبي عبيدة . لكن ذلك لن يغيّر من موقف المسلمين بإزاء الروم ، ولن يشد أزرهم فى قتالهم ، بل لعله يؤدى إلى النقيض فتكون الطامة الكبرى .

وإذا كان عمر أمر برد السبي من أهل الردة إلى عشائرهم فكسب بذلك قلوبهم ، فقد أقبلوا سراعاً من كل حَدَبٍ يلبُّون دعوته يريدون أن يأخذوا فى الحرب بنصيب يطهرهم من سابق ردّتهم ، ويجعل لهم ولذويهم من مغانم الحرب ما لسائر المسلمين . لذلك اطمأن عمر إلى توفيق الله فى معالجة الموقف الدقيق لجيوش المسلمين خارج شبه الجزيرة ، فاتجه بتفكيره إلى ناحية أخرى لا تخالف سياسة رسول الله وسياسة الصدّيق فى أساسها ، وإن خالفت هذه السياسة فى بعض تفاصيلها .

ذلك أن رسول الله دعا الناس كافة إلى دين الله ، لم يفرّق فى دعوته بين أهل الكتاب وغيرهم ، وقد رأى يهود المدينة فى هذه الدعوة خطراً عليهم ، فوادعوا محمداً وعاهدوه على حريّة العقيدة . لكنهم ما لبثوا حين رأوه يستقرّ له الأمر أن ائتمروا به ، فقاتلهم وأجلاهم عن المدينة وعن أكثر منازلهم من شبه الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا قليلون بعد غزوة خيبر صالحوه على

البقاء بأرضهم والعمل فيها على أن يكون للمسلمين النصف من غلاّتها . أمّا نصارى نجران فبعثوا وفداً يجادل النبي ، فلما دعاهم ألا يعبدوا إلا اللّه ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون اللّه ، تولوا وعادوا إلى بلادهم . ثم إنهم بعثوا إليه وفداً صالحه على الجزية يدفعونها لقاء دفاع المسلمين عن حرية عقيدتهم . فلما تولى أبو بكر أقرّ نصارى نجران وعاهدهم على ما عاهدهم النبي عليه ، واقتضى يهود خيبر ما كان يقتضيهم رسول اللّه .

ونظر عمر فى الأمر يوم استخلف فاتّجه فيه وجهة جديدة . فقد دعا إليه يَعْلى بن أمية وألقى عليه أن يجلى نصارى نجران عن ديارهم ، وقال له : « إيتهم ولا تفتنهم عن دينهم ، ثم أجْلِ من أقام منهم على دينه ، وأقرِرِ المسلم ، وامسح أرض كل من يُجْلى منهم ، ثم خيرهم البلدان . وأعلمهم أنا نُجليهم بأمر اللّه ورسوله ألا يُتْرك بجزيرة العرب دينان ، فليخرج من أقام على دينه منهم ، ثم نعطيه أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ، ووفاء بذمتهم فيما أمر اللّه من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم من الريف » .

يحسب بعضهم أخذ عمر بهذه السياسة نقضاً لما صنعه رسول اللّه وما تابعه الصدّيق عليه . والمستشرقون يذهبون لذلك فى التحامل على عمر إلى حدّ لومه على ما صنع . أما المؤرخون المسلمون فيلتمسون له المعاذير ، فيذكر بعضهم أن رسول اللّه إنما عاهد نصارى نجران على ألا يُفْتَنُوا عن دينهم « ما رعوا العهد ، ونصحوا ، ولم يأكلوا الربا » . وأنهم أكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، فنقضوا العهد ، فحقّ لعمر أن يجليهم عن شبه الجزيرة . ويذكر آخرون أنهم اختلفوا فيما بينهم واشتد اختلافهم ، فطلبوا إلى عمر أن ينقلهم إلى ديارٍ غير ديارهم . ويذهب غير هؤلاء وأولئك إلى أنهم قويت شوكتهم ، فخشيهم عمر فأجلاهم . وسواء أصح بعض ما روى من ذلك أم لم يصح كله ، فإنه فى رأيي لم يكن السبب فى تصميم عمر على إجلائهم عن شبه الجزيرة ، وإنما يرجع السبب فى ذلك إلى تكييف عام لسياسة الدولة اقتنع به عمر فنفّذه فى حزم وعدل .

ولكى نقدّر هذا التكييف يجب أن ننفى عن عمر تهمة التعصب كما يلقيها عليه المستشرقون ! فهم يذكرونها متخذين من اقتناع أهل هذا العصر الحاضر بمبدأ حرية العقيدة حجةً لهم فى مؤاخذة عمر بما صنع ، وهذا خطأ أدى إليه تجاهل الواقع . فالواقع من عصر عمر أن العقيدة كانت أساساً جوهريًا فى حياة الجماعة ، فكان المخالفون لعقيدة الجماعة أو الخارجون عليها يُعَدُّون فى حكم الأجانب عن الجماعة ، بل فى حكم الخارجين عليها ،

وكان حربهم لذلك حلاً لصاحب الأمر بل واجباً عليه . ولهذا حورب محمد فى دعوته إلى الله وإلى دين الله ، ولهذا شبّت حروب شعواء بين الروم والفرس بسبب العقيدة . وقد ظلّ الأمر على هذا فى أوربا وفى غير أوربا إلى عهد غير بعيد منا . ففى سبيل العقيدة شبّت الحروب الصليبية بين النصارى والمسلمين ، وفى سبيلها حدثت المآسى والمجازر بين الكاثوليك والبروتستانت . وقد عاهد رسول الله نصارى نجران لأن شبه الجزيرة لمّا تكن وحدتها السياسية قد تمت . فكانت نجران لصيقة باليمن التى ظلّت على وثنيتها زمناً غير قليل بعد هذا العهد بين محمد وهؤلاء النصارى . فلما قُبض رسول الله وخلفه أبو بكر ، كانت اليمن فى طليعة من انتقض على سلطان المدينة وارتدّ عن الإسلام ، فكان طبيعيًّا أن يعاهد الصدّيق نصارى نجران على ما عاهدهم رسول الله عليه . وقد قضت حروب الردة على الانتقاض وعلى الردة جميعاً ، وأدّى القضاء عليهما ثم أدّى ما تلاهما من غزو العراق والشام إلى توطيد الوحدة السياسية والوحدة الدينية فى أرجاء شبه الجزيرة جميعاً ، فأصبحت كلها دولة واحدة ، عاصمتها المدينة ، وحاكمها خليفة رسول الله . وكذلك تولى عمر أمر المسلمين وقد زالت الأسباب التى أدّت إلى معاهدة نجران فى عهد النبي وفى عهد الصدّيق ، وآن لعمر أن يفكر تفكيراً جديداً فى سياسة دولة اتحدت أجزاؤها من شمال شبه الجزيرة إلى جنوبها ، وأصبحت المدينة عاصمتها لا ينازعها منازع .

أمّا وقد أصبحت بلاد العرب دولة متحدة تدين كلها بدين واحد ، ويسوسها رجل رضى أهلها جميعاً بيعته ، فجدير بأميرها أن ينفى عنها كل سبب للضعف أو الوهن . ومن أسباب الوهن لأمة أن تتعدد أجناسها أو تتعدد الشرائع ذات السلطان النافذ بين أهلها . ذلك أمر أقرّه الناس ولا يزالون يقرونه . ولذلك نرى المعاهدات المختلفة إلى أحدث العصور تنقل الجماعات من أهل الجنس الواحد إلى صعيد واحد . ولذلك لاتبيح أمة متحضرة أن يقوم فيها أكثر من تشريع واحد . والإسلام يتناول فيما يتناوله أموراً لاتتفق ومقررات النصرانية . فهو يحرّم الربا ، والنصرانية لا تحرمه ، ويحرّم الخمر ، والنصرانية لا تحرّمها ! وهو دين توحيد ، والنصرانية دين تثليث . وقد كانت هذه المقررات وما إليها نافذة يومئذ لايستطيع أحد أن يتسامح فيها كما يتسامح الناس فيها اليوم باسم حرية العقيدة . فلم يكن عجباً أن يصرّ عمر على ألا يترك بجزيرة العرب دينين وقد أصبح للعرب فى شبه الجزيرة كلها دين واحد ارتضوه فى عهد رسول الله وعادوا إليه بعد ما ارتد بعضهم عنه فى عهد أبي بكر . فوحدة الدين هى الكفيلة بطمأنينتهم وبمتانة وحدتهم ، وبألا تقوم بينهم وبين من لم يكونوا

على دينهم ثائرات تجنى على الطمأنينة أو تعبث بالوحدة . وهذا ما فعل ؛ ولهذا دعا إليه يَعْلَى بن أميَّة وألقى عليه أن يُجلى نصارى نجران .

وتصرُّف عمر فى هذا الأمر خليق بالحمد ، غير خليق بالتحامل ولا باللوم . فهو لم يلجأ إلى ما لجأ إليه أصحاب الكثرة من الكاثوليك أو البروتستانت ؛ إذ كانوا يُرهقون خصومهم فى المذهب حتى لَيقتلوهم بعد أن يذيقوهم العذاب ألواناً ؛ بل كان أول ما أوصى به يَعْلَى ألاّ يفتن نصارى نجران عن دينهم ، وأن يدع لهم الحرية كاملة فى البقاء عليه أو التحول عنه إلى الإسلام ، وأن يعطيهم أرضاً كأرضهم خارج شبه الجزيرة . بذلك لا يظلمهم ولا يصنع معهم إلا ما تصنعه الدول المتحضرة اليوم ، إذ تنقل أهل جنس من الأجناس إلى حيث تقيم كثرة من بنى جنسهم ، وحيث يأمنون أن يضرهم الاختلاف فى الجنس مع جيرانهم أشد مما يضر الكثرة الضخمة القائمة من حولهم .

لَمْ يَرتَبِ الناس بعد ما عرفوا من أمر عمر بإجلاء نصارى نجران فى أنه سيُجلى اليهود ويجلى غير المسلمين جميعاً عن شبه الجزيرة . وقد كانت هذه السياسة جديدة ، لكنهم لم ينكروها ولم يعجبوا لها . بل لعلهم كانوا أكثر عجباً لتولية أبي عُبَيد الثقفى إمرة الجيش بالعراق وفيه من فيه من أهل المدينة مهاجريهم والأنصار ، ثم كانوا أكثر من ذلك عجباً لعزل خالد ابن الوليد عن إمارة الجيش بالشام . لكنهم رأوا عمر يأخذ الأمر بالحزم والعدل معاً ، وذكروا مواقفه من رسول الله ومن أبي بكر ، ثم ذكروا موقف المسلمين ودقته بالعراق والشام ، ورأوه يخطبهم منكراً نفسه متجرداً للّه فى سبيل خيرهم جميعاً ، فآثروا أن يدعوا له الأمر وأن يلقوا عليه التبعة ، وأن يضرعوا إلى اللّه بالدعاء أن يوفقه كما وفق أبا بكر قبله .

ولم يكن ما يخطبهم عمر به أقل من سائر الاعتبارات أثراً فى نفوسهم ؛ فقد كان إخلاصه يتجلى فى عباراته ، وكان إنكاره لنفسه وتجرده للّه فى سبيل خيرهم تنم عنهما كل كلمة من كلماته . كان يقول لهم : « إني لأرجو أن عَمرت فيكم ، يسيراً أو كثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء اللّه ، وألا يبقى أحد من المسلمين ، وإن كان فى بعثه ، إلا أتاه حقه ونصيبه من مال اللّه » . وكان يقول : « إني امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان اللّه عز وجل . ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خُلقى شيئاً إن شاء اللّه . إنما العظمة للّه عز وجل . وليس للعباد منها شيء فلا يقولن أحدكم إن عمر قد تغير منذ ولى . أعقل الحق من نفسى ، وأتقدم وأبيِّن لكم أمرى . فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا فى خُلق فليُؤذِنِّى ، فإنما أنا رجل منكم . . وأنا حبيب إلىَّ صلاحُكم ، عزيز علىَّ عُتبكم . . . وأنا مسئول عن

أمانتى وما أنا فيه ، ومطّلع على ما يحضرني بنفسى إن شاء اللّه ، لا أكله إلى أحد ، ولا أستطيع ما بُعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة . ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء اللّه » . بهذه الأقوال و بمثلها كان عمر يخطب الناس فيتألّف قلوبهم . وقد تألف قلوب العرب فى أرجاء شبه الجزيرة منذ أمر بردّ السبي من أهل الردة إلى عشائرهم . فلما أمّر أبا عبيدة، وعزل خالداً ، وأمَر بإجلاء نصارى نجران ، لم ير الناس فى ذلك كله ما يبرمَون به ، وإن رأوا فيه جديداً استفتح عمر به عهده ، مستقلا فيه برأيه ، غير متأسّ فيه بسلفه . وماهم يبرمون به ، وتبعة ذلك كله عليه ، وقد عرفوه رجلا يضطلع بأجسم التبعات فلا ينوء بحملها ، وكثيراً ما يلهمه اللّه الرأى فيما ينهض به منها ، فيكون التوفيق رائده ونصيبه !

وجلس عمر يوماً فى المسجد وقد فرغ من توجيه المسلمين إلى سياسته ، وقد آن لهم أن ينفّذوها ، وأقبل عليه أبوعبيد يودّعه ليسير إلى العراق فى الجيش الذى اجتمع حول الرّاية ، وأقبل فى أثره عدد من الناس غير قليل ، وكلهم يحيون خليفة خليفة رسول الله . وقد وجدوا هذا اللقب ، برغم ترديدهم له ، ثقيل النطق ثقيلا على السمع فجعلوا يتحدثون بينهم فيما اختلجت به نفوسهم . وإنهم لكذلك إذ أقبل بعضهم يحيّى عمر ويقول : « سلام الله عليك ياأمير المؤمنين[١] » . واغتبط الناس لهذا اللقب الجديد حين سمعوه وافترّت ثغورهم أمارة رضاهم عنه . ومن يومئذ لم يدْع أحد عمر خليفة خليفة رسول الله بل دعاه الناس جميعاً « أمير المؤمنين » . وبقى هذا اللقب له ولمن بعده من خلفاء المسلمين وملوكهم .

والآن قد سَبَقنا المثنى إلى العراق فلنسارع لنلحقه به ، ولنرو حديثه حين يدركنا أبو عبيد بجيشه ، فتكون القيادة العامة له ، ثم يكون له من حسن البلاء ماينتهى به إلى المغامرة وإلى الاستشهاد .

(١) أورد ابن عساكر فى (تاريخ دمشق) روايتين فيمن بدأ بدعوة عمر أمير المؤمنين . أولاهما : أن المغيرة ابن شعبة هو أول من دعاه بهذا اللقب . والثانية . أن عمر كتب إلى عامله بالعراق أن ابعث إلى رجلين جلدين نبيلين أسألهما عن أمر الناس ، فبعث إليه بعدى بن حاتم الطائي ولبيد بن ربيعة . فلما بلغا المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد ثم دخلاه ، فاستقبلا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين . قال عمرو : فدخلت على عمر فقلت : ياأمير المؤمنين ، فقال : لتخرجن مما قلت أو لأفعلن : قلت : « يا أمير المؤمنين ، بعث عامل العراق بعدى بن حاتم ولبيد ابن ربيعة . . . فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمين ، فقلت : أنتما والله أصبتما ؛ هو الأمير ونحن المؤمنين » ، فبقى هذا اللقب لعمر من ذلك اليوم وجرى الكتاب به .

obeikandi.com